مجلة المرابط

العدد : ٢٠٨ الموافق في ذو الحجة ١٤١٩ هجري ٤ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : الطغاة .. وحرية القلم –١–	بقلم : د. موفق الحكيم

كرم الله عزّ وجلّ القلم فقال في كتابه العزيز { **ن ، والقلم وما يسطرون...**} [القلم:١].

يقول الشهيد سيد قطب في الظلال :" يقسم الله سبحانه وتعالى بنون ، وبالقلم ، والكتابة . والعلاقة واضحة بين الحرف { **نون** } بوصفه أحد الحروف الأبجدية ، وبين القلم والكتابة . فأما القسم بها فهو تعظيم لقيمتها ، وتوجيه إليها في وسط الأمة التي لم تكن تتجه إلى التعلم عن هذا الطريق ، وكانت الكتابة فيها متخلفة ونادرة في الوقت الذي كان دورُها المقدر لها في علم الله يتطلب نمو هذه المقدرة وانتشارها بينها ، لتقوم بنقل هذه العقيدة وما يقوم عليها من مناهج الحياة إلى أرجاء الأرض ، ثم لتنهض بقيادة البشرية قيادة رشيدة ، وما من شك أن الكتابة عنصر أساسي في النهوض بهذه المهمة الكبرى ، ومما يؤكد هذا أن يبدأ الوحي بقوله تعالى { **اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم...** } وأن يكون هذا الخطاب موجهاً للنبي الأمي الذي قدر الله أن يكون أمياً لحكمة معينة ، ولكنه بدأ الوحي منوها بالقراءة وبالتعليم بالقلم " .

ويقول الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه ثورة الأدب :

" وذلك بأن القلم هو الأداة لتصوير النفس الإنسانية في التماسها الحق والحرية والجمال والخير ، والنفس الإنسانية التي تتلمس هذه النواحي المضيئة من حياة الكون هي دائماً نفس قوية لا تقف في وجهها حوائل القانون ولا العادة ولا الطبيعة نفسها ، نفس تحلق فوق الاعتبارات جميعها لترى مكان الحق الذي تريد إيضاحه ، أو الحرية التي تريد نشرها ، أو الجمال الذي تعالج تصويره ، أو الخير الذي تعمل لبثه وإذاعته ، فإذا اهتدت إلى ما ابتغت ، نفثت منه عن القلم ما يسطره على الورق ، وإن الذين يقرؤونه يرون فيه جانباً من جوانب أنفسهم كان محجوباً عنهم ضياؤه ، ويرون أن هذا الضياء هو الذي يبعث لهم في الحياة نوراً يجعل الحياة أجمل وأسمى وأقوم وإذا هم ينصرون صاحب القلم إذ يتبعونه ، فإذا لم يتبعوه حياً اتبعوه ميتاً "

نعم ، إن أمانة القلم أمانة عالية غالية ، وإن ما يكتبه الإنسان وما يسطره قلمه له أو عليه ، وإن القلم قد يفعل أحياناً ما لا تفعله السيوف ، وقد يكون تأثير السيف وقتياً ولكن ليس نادراً أن يكون تأثير القلم أبدياً ، وقديماً قالوا : صرير الأقلام أشد من صليل الحسام .

ولقد عرف العرب قيمة القلم والكتابة ، فقالوا : القلم أحد اللسانين ، وأشادوا بصاحب القلم المعبِّر

المؤثر الذي يستطيع ببلاغته ،وحسن أسلوبه وجمال تصويره ، أن يعبر عن ضمير الأمة وعن أحاسيس الشعب ، يقول سهل بن هارون : القلم لسان الضمير ، إذا رعف أعلن أسراره وأبان آثاره ، وقال ابن القرِّية : خط القلم يقرأ بكل مكان ، وفي كل زمان ، ويترجم لكل لسان ، ولفظ الإنسان لا يجاوز الآذان " .

وانظر إلى شعراء العرب قديماً وحديثاً يعبّرون عن هذا أجمل التعبيروبأصدق التصوير .

يقول ابن الرومي :

لعَمرُك ما السيف سيف الكميِّ[1] بأخوف من قلم الكاتب
لهُ شاهدٌ إن تأمَّلتهُ ظهرت على سره الغائب
أداة المنيّة في جانبيه فمن مثله رهبة الراهب
سنان المنية في جانب وحد المنية في جانب
ألم تر في صدره كالسِّنان وفي الرِّدف كالمُرهف القاضب

وقال أبو الفتح البستي :

إذا أقسم الأبطالُ يوماً بسيفهم وعدّوهُ مما يُكسب المجدَ والكرم
كفى قلمُ الكتاب مجداً ورفعةً مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم

وانظر إلى هذه القصيدة الرائعة لأبي تمام يمدح أحدهم :

لك القلم الأعلى الذي بشباته[2] تصاب من الأمر الكُلى والمفاصل
لعاب الأفاعي القاتلات لُعابُه وأريُّ الجنى[3] اشتارته أيد عواسل[4]
له ربقةٌ طلٌّ ولكن وقعها بآثاره في الشرق والغرب وابل
فصيحٌ إذا استنطقته وهو راكب وأعجمُ إن خاطبته وهو راجل

[1] الكمي : الفارس المحارب
[2] الشباة : الحد
[3] أري الجنى : العسل
[4] العواسل : مخرج العسل

إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت عليه شعابُ الفكر وهي حوافل
أطاعته أطراف القنا وتقوّضت لنجواه تقويض الخيام الجحافل
رأيت جليلاً شأنه وهو مرهف ضنى ، وسميناً خطه فهو ناحلُ

وأمير الشعراء أحمد شوقي يقول :

سبحانك اللهم خير معلم علمت بالقلم القرون الأولى
أخرجت هذا العقل من ظلماته وهدّيتهُ النور المبين سبيلا
أرسلت بالتوراة موسى مرشداً وابن البتول فعلم الإنجيلا
وفجرت ينبوع البيان محمداً فسقى الحديث وناول التنزيلا

ولكي يستطيع القلم أن يعبر عن أحاسيس النفس ومشاعرها ، وجهادها من أجل الخير والحق والجمال فلابد أن يتاح له جو من الحرية ، فحرية القلم والرأي هامة جداً من أجل إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وقد عرف الطغاة في كل عصر ومصر وقصر هذه الحقيقة فكان أول ما لجاؤوا إليه تكميم الأفواه ، والحجر على العقول والتضييق على أصحاب الرأي والقلم . يقول الأستاذ محمد الغزالي رحمه الله في كتابه (جدد حياتك: ص ١٥٢): " وحرية الرأي هي حارسة العدالة في الشعب ، والسياج الذي يكف الحاكم أن يستبد بأمور الناس ، ولا قيام لحكم الطاغية إلا على الأذهان الممسوخة والأفكار الراكدة البلهاء ، والحجر على ذوي الرأي أن ينظروا إلى الأمور إلا من الزاوية التي يراها لهم الطاغية ، وقد أدرك فرعون مصر قديماً تلك الحقيقة فأعلن إلغاء حرية الرأي بقوله { **ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد** } [غافر: ٢٩]. أي أنه اعتزم تعطيل ملكة الرأي فيهم ، فلا يسمح أن يكون لهم رأي في الأمور غير ما يرى هو فيها ، وذلك من مسخ المواهب وتغيير خلق الله " ويقول الأستاذ محمد حسين هيكل في ثورة الأدب :" أما أن يحارب البغاة القلم وحرية أربابه فلهم في ذلك كل العذر ، فحرية القلم هي المظهر الأسمى لحرية الإنسان في أسمى صورها ومظاهرها ، وحرية القلم إنما تكون حيث يمسك القلم رب من أربابه لا عامل من عماله ، رب تؤتيه الطبيعة من قوة الخلق والإنشاء ما لا سبيل إليه إلا في جو الحرية المطلقة ، وتدفعه ليخلق هذه الحرية حوله خلقاً ، ولو ألقي به في غيابات السجون ، بل تدفع ذكراه لخلق هذه الحرية إذا هو غيب بين صفائح القبور " .

وقد لجأ الطغاة إلى عدة وسائل وأساليب في محاربة دعوة الحق ، وحرية الرأي والتعبير ، واستعانوا بكل الأفكار الشيطانية ، والأساليب الوحشية والحيل الدنيئة من أجل التعتيم على حرية الرأي والمفكرين الأشراف . ولعل أبسط هذه الوسائل كانت في إصدار ما يسمى قانون المطبوعات ، والذي يمنع الحريات ويصادر الصحف إذا كانت آراء أصحابها وأفكارها لا تتناسب مع أفكار السلطة الحاكمة ، وقد عبر شاعر النيل حافظ إبراهيم عن جور هذه القوانين فقال :

إن البلية أن تُباع وتُشترى مصرٌ وما فيها وأن لا تنطقا
كانت تواسينا على آلامنا صحفٌ إذا نزل البلاء وأطبقا
فإذا دعوتُ الدمع فاستعصى بكت عنا أسىً حتى تغصّ وتشرقا
كانت لنا يوم الشدائد أسهماً نرمي بها وسوابقاً يوم اللقا
كانت صماماً للنفوس إذا غلتْ فيها الهمومُ وأوشكت أن تزهقا
كم نفّست عن صدر حرٍّ واجدٍ لولا الصَّمام من الأسى لتمزقا
مالي أنوح على الصحافة جازعاً ماذا ألم بها ، وماذا أحدقا
قصموا حواشيها وظنوا أنهم أمنوا صواعقها فكانت أصعقا
وأتوا بحاذقهم يكيد لها بما يُثني عزائمها فكانت أحذقا

فإذا لم تنفع هذه الوسائل " البسيطة " والأساليب " المرنة " عمد الطغاة إلى وسائل أخرى ، تارة بالترهيب ، وتارة بالترغيب . يقول د. محمد حسين هيكل في ثورة الأدب : " في عصور الظلمة التي تمر بالأمم آناً بعد أن يعمد الباطشون البغاة إلى تقييد حرية القول والكتابة ، وفي سبيل هذا التقييد يُصلون أرباب الأقلام حرباً لا رحمة فيها ولا هوادة ؛ فمن إرهاق إلى سجن ، إلى نفي وتشريد ، وهم في حربهم هذه يندفعون ضد الكتّاب ؛ كاشرة أنيابهم ، محمرة عيونهم ، مفتحة خياشيمهم ، أشبه الأشياء بالكواسر المفترسة حين يغريها منظر الدم ، فيهيج فيها كل غرائزها الوحشية ، ولا يهدأ لهم من بعد ذلك بال ولا يطمئن لهم خاطر إلا إذا اطمأنوا إلى أنهم حطموا تلك الأقلام إلى غير عودة إلى الكتابة ، وأذلوا نفوس حملتها إذلالاً لا قومة لهم من بعده ، وهذه الغرائز المفترسة التي تهيج في نفوس البغاة لحرب القلم وحملته لا تهيج فيهم لمحاربة أية قوة أخرى من القوى بالغاً ما بلغ أصحابها من العز والمكانة "

وتارة يلجأ الطغاة إلى الترغيب بإغداق الأموال ، ومنح الرتب ، وإعطاء المراكز لهؤلاء الكتاب ،

ولا يكتفون بذلك بل يصنعون لأنفسهم كتاباً وأقلاماً وينشئون لأنفسهم صحفاً ومجلات ، تقدس ذكرهم وتنزههم عن العيوب والنقائص ويقوم على تحريرها والإشراف عليها صنائع مأجورون يعملون للطاغية ، ويأمرهم فيأتمرون ، ويدعوهم فيلبون ، أمرهم من أمره ، وسلطانهم من سلطانه ، يتكلم بألسنتهم ، ويبطش بأيديهم . يقول الدكتور محمد حسين هيكل " وللطغاة في تكثيف الظلام الذي ينشرونه حولهم أساليب عجب ، فهم يخلقون الطوائف يطلقون عليها أسماء أضدادها ليسخروا من الناس وليزيدوهم ظلماً ، يطلقون على طائفة اسم العلماء ، والعلم منهم براء ، وكل الغاية التي تكلف هذه الطائفة بها إنما هي نشر الترهات وترويج الأباطيل ، ومحاربة العلم الصحيح بدعوى أنه السحر أو الكفر ، أو ما شاء لهم خيالهم المجرم ، ويطلقون على طائفة الكتّاب ، وما هم بكتّاب وإنما هم منافقون متملقون لا يعرفون غير المدح يكيلونه جزافاً لسادتهم ، وغير الطعن الجارح يواجهون به من يعرف سادتهم منهم نزعة إلى الحق وإلى الحرية ، هؤلاء ليسوا كتّاباً وإنما هم كالكلاب تبصبص بأذنابها لمن يلقي إليها بطعام أو بعظم من العظام ، وتنبح من يطلقها عليه صاحبها لنبحه ، وهؤلاء لن يكونوا كتّاباً ولن يطلق عليهم هذا الاسم أو أي اسم يتصل به ، لأن الكاتب تصدر عباراته عن قلبه وعن إيمانه ، وأما المنافقون فتصدر كتاباتهم عن بطونهم وعن شهواتهم الخسيسة السافلة "

- للبحث صلة -